رفعة الله لعباده المتواضعين

إعداد وترتيب : علي بن محمد عبده المطري

عفا الله عنه وغفر له ورحمه

وأسكنه فسيح جناته

الاثنين ٤/ ذو القعدة/ ١٤٤٢ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

رفعة الله لعباده المتواضعين

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، أما بعد:

- عن ابن عباس –رضي الله عنهما–، قال –صلى الله عليه وسلم–: ((ما من آدمي إلا في رأسه حَكَمَة بيد مَلَك، فإذا تواضع قيل للملك: ارفع حَكَمَته، وإذا تكبَّر قيل للملك: د ع حَكَمته))[1].

- من أعظم النعم التي ينعم الله بها على عبده «نعمة التواضع»؛ أن يألف ويؤلف، أن يكون هيِّنًا لَيِّنًا قريبًا سهلًا، سمحًا إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى.

وللتواضع تأثير عجيب في تماسك المجتمع، فلا يدعه حتى يصير كل أفراده على قلب رجل واحد، لا يشقى بينهم يتيم، ولا يضيع وسطهم محروم، ولا يظلم في جوارهم ضعيف، قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]؛ أي: يمشون بسكينة ووقار، متواضعين غير أشرين، ولا مرحين ولا متكبِّرين.

---

١ رواه الطبراني في المعجم الكبير ٢٨١/١٢ برقم ١٤٣٥٣٢ عن ابن عباس –رضي الله عنهما–، والبزار عن أبي هريرة، وقال المنذري في الترغيب ١٦/٤ والهيثمي في مجمع الزوائد ٨٢/٨: إسنادهما حسن، ورواه البيهقي في شعب الإيمان ٢٧٧/٦ برقم ٨١٤٣، وأورده أيضًا السيوطي في الجامع الصغير (حسن)؛ حديث رقم: ٥٦٧٥ وهو في صحيح الجامع، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٥٣٥.

قال –صلى الله عليه وسلم–: ((إن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد))[1]، وقال: ((ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عِزًّا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله))[2].

- يعلق المناوي على حديثنا هذا بقوله: ((ما من آدمي)) من زائدة وهي هنا تفيد عموم النفي، وتحسين دخول ما على النكرة ((إلا في رأسه حَكَمة)) وهي بالتحريك: ما يجعل تحت حنك الدابة يمنعها المخالفة كاللِّجام، والحنك متصل بالرأس، ((بيد ملك)) موكل به ((فإذا تواضع)) للحق والخلق ((قيل للملك:)) من قبل اللّه تعالى ((ارفع حَكَمته))؛ أي: قدره ومنزلته، يقال: فلان عالي الحكمة، فرفعها كناية عن الإعزاز ((فإذا تكبَّر قيل للملك: ضع حَكَمته)) كناية عن إذلاله، فإن من صفة الذليل تنكيس رأسه، فثمرة التكبُّر في الدنيا الذلة بين عباد اللّه، وفي الآخرة نار الإيثار، وهي عصارة أهل النار كما جاء في بعض الأخبار[3].

- وعن عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– قال: إن الرجل إذا تواضع لله رفع الله حَكَمته. وقال: انتعش نعشك الله، فهو في نفسه صغير وفي أعين الناس كبير، وإذا تكبر العبد وعدا طوره، وهصه الله إلى الأرض، وقال: أخسأك الله، فهو في نفسه كبير وفي أعين الناس صغير[4].

- يقول ابن حبان: الواجب على العاقل لزوم التواضع ومجانبة التكبر، ولو لم يكن في التواضع خَصلة تحمله إلا أن المرء كلما كثر تواضعه ازداد بذلك رفعة، لكان الواجب عليه ألَّا يتزيَّا بغيره، والتواضع نوعان: التواضع المحمود ويكون بترك التطاول على عباد الله والإزراء بهم، والتواضع المذموم وهو تواضع المرء لذي الدنيا رغبة في دنياه[5].

---

١ رواه مسلم عن عياض بن حمار/ باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، برقم ٢٨٦٥.

٢ رواه مسلم عن أبي هريرة/ كتاب البر والصلة والآداب برقم ٤٦٦٥.

٣ فيض القدير/ المناوي (٢/٥٤٨).

٤ روضة العقلاء ونزهة الفضلاء لابن حبان، ص ٦٠.

٥ روضة العقلاء ونزهة الفضلاء لابن حبان، مكتبة السنة المحمدية، القاهرة، ص ٥٦.

- قال أبو بكر الصديق –رضي الله عنه–: وجدنا الكرم في التقوى، والغنى في اليقين، والشرف في التواضع[1].

- وقالت أم المؤمنين عائشة –رضي الله عنها–: إنكم لتغفلون أفضل العبادة: التواضع[2].

- وقال معاذ بن جبل –رضي الله عنه–: لن يبلغ العبد ذرى الإيمان حتى يكون التواضع أحبَّ إليه من الشرف[3].

- وقال عروة بن الورد: التواضُع أحد مصائد الشرف، وكل نعمة محسود عليها صاحبها إلا التواضع[4].

- وقال أبو حاتم: التواضع يرفع المرء قدرًا، ويعظم له خطرًا، ويزيده نبلًا[5].

- وعبارات السلف الصالح في تعريف التواضُع أشبه بصندوق الدُّرر التي تبهر العين وتمسك بتلابيب الفؤاد، فسئل الفضيل بن عياض يومًا عن التواضُع فقال: يخضع للحق وينقاد له ويقبله ممن قاله.

- وقال الجنيد بن محمد: هو خفض الجناح ولين الجانب.

- وقال أبو يزيد البسطامي: هو ألَّا يرى لنفسه مقامًا ولا حالًا، ولا يرى في الخلق شرًّا منه.

- وقال ابن عطاء: هو قبول الحق ممن كان، والعز في التواضع، فمن طلبه في الكبر فهو كطلب الماء من النار.

- وقال حمدون القصار: التواضع ألَّا ترى لأحد إلى نفسك حاجة لا في الدين ولا في الدنيا.

- وقال صاحب (المنازل) شيخ الإسلام الهروي: التواضع أن يتواضع العبد لصولة الحق.. قال ابن القيم معلقًا: يعني أن يتلقى سلطان الحق بالخضوع له والذل والانقياد، والدخول تحت رقه، بحيث يكون الحق متصرفًا فيه تصرف المالك في مملوكه، فبهذا يحصل للعبد خلق التواضع؛ ولهذا فسر النبي –صلى الله عليه وسلم– الكبر بضده، فقال –صلى الله عليه وسلم–: ((الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ وغَمْطُ النَّاسِ))[6]، فبطر الحق: ردُّه وجحده والدفع في صدره كدفع الصائل، وغمط الناس: احتقارهم وازدراؤهم. ومتى احتقرهم وازدراهم دفع حقوقهم وجحدها واستهان بها[7].

---

١ موسوعة صلاح الأمة في علو الهمة للعفاني، ج٥، ص ٤٢٠.

٢ حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني، ج٧، ص٢٤٠.

٣ الزهد لابن المبارك، ج١، ص٥٢.

٤ تنبيه الغافلين للسمرقندي، ص١٣٩.

٥ روضة العقلاء ونزهة الفضلاء لابن حبان، ص ٦٠.

٦ تخريج السيوطي، رواه مسلم عن ابن مسعود، كتاب الإيمان برقم ١٣١ (صحيح)؛ انظر حديث رقم: ٧٦٧٤ في صحيح الجامع، السيوطي/الألباني.

٧ انظر هذه التعريفات في مدارج السالكين لابن القيم، ط دار الحديث، القاهرة، ج ٢، ص ٣٤٦.

ومن مظاهر التواضع وصفات المتواضعين[1]:

- كراهيتهم مشي الناس خلفهم: فعن عبدالله بن عمرو -رضي الله عنه- قال: "ما رُئي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يأكل متكئًا ولا يطأ عقبه رجلان"[2]، وسار قوم خلف عبدالله بن مسعود -رضي الله عنه- فنظر إليهم غاضبًا، وقال لهم: ارجعوا، فإنها فتنة للمتبوع، وذلة للتابع.

- زيارتهم لغيرهم: قدم سفيان الثوري «الرملة» فبعث إليه إبراهيم بن أدهم أن تعال فحدِّثنا، فجاء سفيان فقيل: له يا أبا إسحق، تبعث إليه بمثل هذا؟ فقال: أردت أن أنظر كيف تواضعه.

- لا يستنكفون من جلوس غيرهم إلى جوارهم: قال ابن وهب، جلست إلى عبدالعزيز بن أبي رواد، فمس فخذي فخذه، فنحيت نفسي عنه، فأخذ ثيابي فجرني إلى نفسه، وقال لي: لم تفعلون بي ما تفعلون بالجبابرة، وإني لا أعرف رجلًا منكم شرًّا مني.

- عدم أنفتهم من حمل أمتعتهم الخاصة: قال علي -رضي الله عنه- لا ينقص الرجل الكامل من كماله ما حمل من شيء إلى عياله. وعن الأصبغ بن نباته قال: كأني أنظر إلى عمر -رضي الله عنه- معلقًا لحمًا في يده اليسرى، وفي يده اليمنى الدِّرَّة، يدور في الأسواق حتى دخل رحله.

- جلوسهم إلى المساكين: عن مسعر قال: مَرَّ الحسين بن علي -رضي الله عنه- على مساكين وقد بسطوا كساء وبين أيديهم كسر فقالوا: هلم يا أبا عبدالله، فحول وركه وقرأ: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣]، فأكل معهم ثم قال: قد أجبتكم فأجيبوني، فقال للرباب- يعني امرأته-: أخرجي ما كنت تدخرين[3].

اخفض جناحك:

قال تعالى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥]، قال القرطبي: أي ألِن جانبك لمن آمن بك وتواضع لهم[4].

ولقد كان -صلى الله عليه وسلم- سيد المتواضعين، وكان يقول: ((اللهم أحيني مسكينًا، وأمتني مسكينًا، واحشرني في زمرة المساكين))[5].

---

١ انظر موسوعة صلاح الأمة في علو الهمة للدكتور سيد العفاني، ط دار الرسالة، ج٥، ص ٤٤٥ وما بعدها.

٢ إسناده حسن، أخرجه ابن أبي الدنيا في (التواضع والخمول) وأبو الشيخ في (أخلاق النبي) والبيهقي في (الزهد) ٢/٥٨٥.

٣ انظر: التواضع والخمول لابن أبي الدنيا، ص١٥١.

٤ تفسير القرطبي، ص ٣٦٧٣، ط دار الشعب.

٥ رواه ابن ماجه عن أبي سعيد الخُدْري، كتاب الزهد برقم ٤١١٦، والترمذي بنحوه عن أنس، كتاب الزهد برقم ٢٢٧٥، وحسنه الألباني في إرواء الغليل ٣/٣٦٣.

أراد به استكانة القلب والتواضُع والإخبات، وألَّا يكون من الجبَّارين المتكبرين.. قال ابن تيمية: "فالمسكين المحمود هو المتواضع الخاشع لله، ليس المراد بالمسكنة عدم المال؛ بل قد يكون الرجل فقيراً من المال وهو جبَّار، فالمسكنة خلق في النفس وهو التواضع والخشوع واللين ضد الكبر، كما قال عيسى عليه السلام: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: ٣٢]"[١].

- وعن عائشة –رضي الله عنها– قالت: قال –صلى الله عليه وسلم–: ((يا عائشة، لو شئت لسارت معي جبالُ الذهب، جاءني ملك إنَّ حُجْزَتَه لتُساوي الكعبةَ، فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول: إن شئت نبيًّا عبدًا، وإن شئت نبيًّا ملكًا، فنظرت إلى جبريل عليه السلام، فأشار إليَّ أن ضع نفسك، فقلت: نبيًّا عبدًا))، قالت: وكان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بعد ذلك لا يأكل متكئًا: يقول: ((آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد))[٢].

- وعن أنس –رضي الله عنه– أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– كان يمُرُّ على الصبيان فيسلم عليهم[٣].

- وعنه أيضًا قال: إن كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فتنطلق به حيث شاءت[٤].

- وعن سهل بن حنيف قال: كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يأتي ضعفاء المسلمين ويزورهم ويعود مرضاهم ويشهد جنائزهم[٥].

- وعن الحسن البصري أنه ذكر رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فقال: لا والله، ما كانت تغلق دونه الأبواب، ولا يقوم دونه الحجاب، ولا يغدى عليه بالجفان، ولا يراح عليه بها، ولكنه كان بارزًا من أراد أن يلقى نبي الله لقيه، وكان يجلس بالأرض، ويوضع طعامه بالأرض، يلبس الغليظ، ويركب الحمار، ويردف عبده، ويعلف دابته بيده صلى الله عليه وسلم[٦].

---

١ مجموع الفتاوى ١٨/٣٨٢.

٢ صحيح لغيره: رواه البغوي في شرح السنة، وروى نحوه الهيثمي في المجمع ٩/١٩ عن أبي هريرة وقال: (رواه أحمد والبزار وأبو يعلى ورجال الأولين رجال الصحيح، ورواه أبو يعلى بإسناد حسن).

٣ رواه البخاري، كتاب الاستئذان، باب التسليم على الصبيان.

٤ البخاري، كتاب الآداب برقم ٥٦١٠.

٥ صحيح: رواه أبو يعلى والطبراني والحاكم ٢/٤٦٦ وصححه الألباني في الصحيحة برقم ٢١١٢.

٦ صفوة الصفوة، ج ١، ص ١٦٨.

على الدرب:

- قسم عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– بين الصحابة –رضي الله عنهم– حللًا، فبعث إلى معاذ حلة ثمينة، فباعها واشترى بثمنها ستة أعبد وأعتقهم، فبلغ ذلك عمر فبعث إليه بعد ذلك حلة دونها، فعاتبه معاذ. فقال عمر: لأنك بعت الأولى. فقال معاذ: وما عليك؟! ادفع لي نصيبي، وقد حلفت لأضربن بها رأسك، فقال عمر: رأسي بين يديك، وقد يرفق الشاب بالشيخ[1].

وعن عمرو بن قيس أن عليًّا –رضي الله عنه– رئي عليه إزار مرقوع، فعوتب في لبسه، فقال: يقتدي بي المؤمن، ويخشع له القلب[2].

وعن فضيل بن عياض قال: رُئي على سلمان جبة من صوف، فقيل له: لو لبست ألين من هذا؟ فقال: إنما أنا عبد، ألبس كما يلبس العبد، فإذا عتقت لبست ثيابًا لا تبلى حواشيها[3].

وعن الإمام أحمد يقول المروزي: لم أرَ الفقير في مجلس أعز منه في مجلس أبي عبدالله، كان مائلًا إليهم، مقصرًا عن أهل الدنيا، وكان فيه حلم، ولم يكن بالعجول، وكان كثير التواضع تعلوه السكينة والوقار، إذا جلس في مجلسه بعد العصر للفتيا لا يتكلم حتى يُسأل، وإذا خرج إلى مسجده لم يتصدر، يقعد حيث انتهى به المجلس[4].

همسة في أذن كل متكبر:

إذا كانت الهداية إلى الله تعالى مصروفة، والاستقامة على مشيئته موقوفة، والعاقبة مغيبة، والإرادة غير مغالبة، فلا تعجب بإيمانك وعملك وصلاتك وصومك وجميع قربك، فإن ذلك وإن كان من كسبك فإنه من خلق ربك وفضله الدارّ عليك وخيره، فمهما افتخرت بذلك كنت كالمفتخر بمتاع غيره، وربما سلب عنك، فعاد قلبك من الخير أخلى من جوف البعير، فكم من روضة أمست وزهرها يانع عميم، فأصبحت وزهرها

---

١ مدارج السالكين ٢/ ٢٣٠.

٢ إسناده صحيح، أخرجه أحمد في فضائل الصحابة، وهناد في الزهد ٢/ ٥٦٥، وابن سعد في الطبقات ٦/ ٥٨٣، وابن أبي الدنيا في التواضع والخمول.

٣ ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ١/ ٥٤٨.

٤ تاريخ الإسلام للذهبي ٤/ ٥٨٨.

يابس هشيم، إذ هبت عليها الريح العقيم، كذلك العبد يمسي وقلبه بطاعة الله مشرق سليم، فيصبح وهو بمعصية الله مظلم سقيم، ذلك من فعل العزيز الحليم الخلاق العليم[1].

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، والحمد لله رب العالمين.

١ التذكرة في أحوال الموت وأمور الآخرة للقرطبي، بتحقيق مجدي فتحي السيد (١٠٩/١) دار الصحابة.